

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



**UNIVERSITI
MALAYA**
The Leader in Research & Innovation



مركز بحوث القرآن

معالم المعرفة بين الوحي القرآني
والفكر العلماني
دراسة مقارنة للمفاهيم والمصطلحات

بحث مقدم
للمؤتمر القرآني الدولي السنوي
" مقدس ٤ "

إعداد: د. حمزة حسن سليمان صالح

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالسودان

رئيس قسم التأليف والتنسيق والبرامج

بعمادة البحث العلمي والتأليف والنشر بالجامعة

البريد الإلكتروني: ortashi_555@yahoo.com

رقم الجوال: [00249121250040](tel:00249121250040)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

معالم المعرفة بين الوحي القرآني
والفكر العلماني
دراسة مقارنة للمفاهيم والمصطلحات

إعداد وتقديم: د. حمزة حسن سليمان - السودان

المقدمة :

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، ونصلى ونسلم على أكرم خلقه، وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أرسله الله بالقرآن، فدعا عباده إلى المعرفة الحقة بالله سبحانه وتعالى، على بصيرة وعلم ويقين.

يعتبر الوحي القرآني من أهم مصادر المعرفة التي عرفها تأريخ الإنسان، حيث تحدث هذا الكتاب العزيز عن مختلف أبواب المعرفة، سواء الفكرية أم الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم غيرها. أما بعد،،

بتوفيق من الله سبحانه وتعالى يحاول البحث - الذي جاء بعنوان: (معالم المعرفة بين الوحي القرآني والفكر العلماني - دراسة مقارنة للمفاهيم والمصطلحات) - استنباط المعالم الرئيسة للمعرفة التي رسمها الوحي القرآني، وبينتها السنة النبوية المطهرة، وذلك من خلال إبراز الاختلاف الجوهرى بين النسق المعرفى الإسلامى ونظيره العلماني، بتتبع أركان المعرفة الأساسية التي حصرناها في خمسة أركان ولا ندعي أنها جامعة مانعة وهي:

[١] مصدر المعرفة [٢] محتوى المعرفة [٣] متلقي المعرفة [٤] منهجية المعرفة [٥] تطبيقات المعرفة.

والتي تعتبر المحاور الأساسية للخطة العامة للبحث.

الأهداف:

هدف البحث في إطاره العام للآتي:

- ١- التعريف المنطقي للعلم والمعرفة والتوفيق في التعريف بين المصطلحين.
- ٢- بيان أن تفسير الرؤية الإسلامية للظواهر الطبيعية يختلف عن التفسير العلمي الوضعي "العلماني" لها، وأن التفسير الإسلامي يتفوق على التفسير الوضعي.

منهج البحث:

تقتضي سلامة الوصول إلى نتائج طبيعية أن أتبع في هذا البحث المنهج الاستردادي الذي يعتمد على عملية استرداد ما كان في الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث، وتحليل القوى والمشكلات التي صاغت الحاضر.

وختمت البحث بأهم النتائج المتوصل إليها من خلال موضوعات البحث التي ناقشها.

التمهيد: تعريفات ومعان: أولاً: المعالم:

جاء تعريف المعالم في لسان العرب بقوله: "المعالم جمع معلم، وهو في اللغة: الأثر الذي يُستدل به على الطريق، ومعلم الطريق: دلالته، والمعلم: ما جعل علامةً وعلماً للطريق والحدود، مثل: أعلام الحرم ومعالمه المضروبة عليه"^(١).

١- انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم الأفيقي المصري، لسان العرب، ط ١، المطبعة الأميرية ببولاق مصر.

١٣٠٣هـ، (١٢/٤١٩، ٤٢٠).

وجاء في المحكم والمحيط الأعظم: "ومعلم الطريق دلالاته وكذلك معلم الدين على المثل ومعلم كل شيء مظنته، وفلان معلم للخير كذلك، وكله راجع إلى الوسم والعلم"^(١).

وقال في تاج العروس: "المعلم: ما يستدل به على الطريق من الأثر، والجمع: المعالم"^(٢).

والمعنى الذي قصدته في بحثي هذا يميل إلى تعريف المعالم بالدلالة لأنني قصدت معرفة دلالة النموذج المعرفي الإسلامي، مقارنة مع النموذج العلماني، وأثره في الفكر الإسلامي.

ثانياً: العلاقة بين المعرفة والعلم:

بما أنني سوف أفضل في الفروق بين مصطلحي العلم والمعرفة، وفي ذلك قد يرد تعريف لكليهما وحتى لا نطيل في التعريفات وبالرجوع إلى القرآن الكريم والنظر في الآيات التي وردت فيها كلمة معرفة أو مشتقاتها وباستقراء التعريفات الكثيرة والمتباينة التي وردت في تعريفها ووفاءً بالغرض من هذا البحث فإن المعرفة هي: كل اعتقاد جازم سواء طابق الواقع أم لم يطابقه.

أما العلم وبتجاوز التعريفات اللغوية الكثيرة له فالذي تركز إليه النفس بعد الوقوف على مجموعة معتبرة من تعريفاته، هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو هو إدراك الشيء على حقيقته إدراكاً جازماً.

وفي العلاقة اللغوية والاصطلاحية التي تجمع أو تفرق بين مصطلحي العلم والمعرفة نجد كثيراً من العلماء لا يفرقون بين العلم والمعرفة فيطلقون أحدهما على الآخر، ففي مختار الصحاح: "وعلم الشيء بالكسر يعلمه علماً عرفه"^(٣). وفي لسان العرب: "العلم ضد الجهل، ثم قال: علمت الشيء بمعنى عرفته وخبرته، وفي التنزيل: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ دُونِهِمْ لَأَعْلَمُوهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]"^(٤). ثم نقل عن ابن سيده قوله: "وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان"^(٥)، وهذا يدل على وجود فرق بين العلم والمعرفة ومحصل ما وجدته من كلام أهل العلم في الفرق بين العلم والمعرفة ما يلي:

١- قال القرطبي في الجامع في أحكام القرآن: "قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾

[البقرة: ٦٥]، علمتم معناه عرفتم أعيانهم، وقيل علمتم أحكامهم. والفرق بينهما أن المعرفة متوجهة إلى ذات المسمى والعلم متوجه إلى أحوال المسمى، فإذا قلت عرفت زيدا، فالمراد شخصه، وإذا قلت علمت زيدا فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص، فعلى الأول يتعدى الفعل إلى مفعول واحد وهو قول سيبويه علمتم

١- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م، بيروت - (٢ / ١٧٧)

٢- أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية - (٣٣ / ١٣٢)

٣- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ١٨٩.

٤- ابن منظور، لسان العرب - (١٢ / ٤١٦).

٥- المصدر نفسه - (٩ / ٢٣٦).

بمعنى عرفتم، وعلى الثاني إلى مفعولين، وحكى الأخفش ولقد علمت زيداً ولم أكن أعلمه وفي التنزيل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ كل هذا بمعنى المعرفة^(١).

٢- وفي التعريفات عند الجرجاني: "المعرفة ما وضع ليدل على شيء بعينه وهي المضمرة والأعلام والمبهمة وما عرف باللام والمضاف إلى أحدهما، والمعرفة أيضاً إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبقة بجهل بخلاف العلم، ولذلك يسمى الحق تعالى بالعالم دون العارف"^(٢).

٣- وقال العسكري في الفروق: "المعرفة أخص من العلم لأنها علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه، والعلم يكون مجملاً ومفصلاً، والمعرفة: تقال للإدراك المسبوق بالعدم، ولثاني الإدراكين إذا تخللها عدم، والإدراك الجزئي، والإدراك البسيط. والعلم: يقال لحصول صورة الشيء عند العقل، وللاعتقاد الجازم المطابق الثابت للإدراك الكلّي، ولإدراك المركّب"^(٣).

٤- وقال أبو البقاء في الكليات: "المعرفة قد تقال فيما تدرك آثاره، وإن لم تدرك ذاته. والعلم لا يقال إلا فيما أدرك ذاته.

٥- والمعرفة تقال فيما لا يعرف إلا كونه موجوداً فقط. والعلم أصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفيته وعلته.

٦- والمعرفة تقال فيما يتوصل إليه بتفكير وتدبر، والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره"^(٤).

٧- ويفصل ابن القيم القول في ذلك في كتابه مدارج السالكين، فيقول: "فعل المعرفة: يقع على مفعول واحد تقول عرفت الدار وعرفت زيداً قال تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وفعل العلم يقتضي مفعولين كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلَّمْتُمُوهُنَّ مِثْلَ الْغَنِيِّاتِ﴾ [المتحنة: ١٠] وإن وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]"^(٥).

١ - القرطبي، الجامع في أحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ٤٣٩/١.

٢ - الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ، (١ / ٢٨٣).

٣ - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الفروق اللغوية، ط ١، ١٤١٢هـ مؤسسة النشر الاسلامي، ص ٧٢، ٨٦.

٤ - أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، كتاب الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م. تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، ٨٦٨.

٥ - ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت - ط ٢: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م. (٣ / ٣٣٦)

٨- وفي التعاريف للمناوي: "العرفان كالمعرفة إدراك الشيء بتفكير وتدبر فهو أخص من العلم ويقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكير ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم الجهل والعارف المختص بمعرفة الله ومعرفة ملكوته وحسن معاملته تعالى"^(١).

ثالثاً: الفكر العلماني:

ولما كنت قد فصلت القول عن المعرفة فسأختصر في هذا القسم تعريف العلمانية، وهي: "علمانية بكسر العين مأخوذة من كلمة علم بكسر العين، وكلمة علم مأخوذة من اللغة العبرانية القديمة وهي غلام بضم العين وكلمة غلام مأخوذة من كلمة ألام بضم الهمزة وهي كلمة من اللغة السريانية لغة أهل العراق التي أعقبت اللغة السومرية، وقد وردت أيضاً باللغة الآرامية لغة أهل الشام سوريا قديماً، وكل هذه الكلمات ذات معنى واحد هو المعرفة المستمدة من الكون الحياتي، و علمانية بفتح العين، وعلماني هي نفس المعنى، وبالرجوع الى اللغة المصرية القديمة ولغة شمال افريقيا حيث كانت كلمة عالم تعني الكون الحياتي أو الطبيعة أو الكيان المادي، فكلى الكلمتين صحيح، والملاحظة المهمة هنا هو أن المعرفة المستمدة من خارج المادة، أي من الغيب مثل علم اللاهوت والمعرفة الموجودة بالكتب السماوية مثل القران والتوراة الموحى بها من الله دون دلالات مادية محسوسة، ومن الخطأ الكبير أن نطلق عليها اسم علم بل هي حقيقة معرفة الغيب اسمها المعرفة الغيبية لأنه كما قلنا علم هي مصطلح يعني بالمادة وليست كلمة وصفية لشيء مجرد"^(٢).

وفي معجم المناهي اللفظية: "هي مصدر صناعي، وكقولهم: علماني، روحاني، ونحوهما، وهو مولد معناه: اللادينية، ويعني: فصل الدين عن الدولة، وقيام الدولة في الحكم والإدارة والسياسة على غير الدين. وغايته: فصل الدين عن الحياة، وهي غاية إلحادية فهو مصطلح فاسد لغةً ومعنىً"^(٣).

وتقدم دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بكونها: "حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدنيوية بدلاً من الاهتمام بالشؤون الآخروية. وهي تعتبر جزءاً من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة الداعية لإعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به بدلاً من إفراط الاهتمام بالعزوف عن شؤون الحياة والتأمل في الله واليوم الأخير"^(٤).

وبذلك يتضح أن الفكر العلماني يعني اصطلاحاً فصل المؤسسات الدينية عن السياسة، والحكم، وقد يعني أيضاً عدم قيام الحكومة أو الدولة بإجبار أي أحد على اعتناق وتبني معتقد أو دين أو تقليد معين لأسباب ذاتية غير موضوعية، وهو بذلك فكر مبتور.

ويعني عام فإن هذا المصطلح يشير إلى الرأي القائل بأن الأنشطة البشرية والقرارات وخصوصاً السياسية منها يجب أن تكون غير خاضعة لتأثير المؤسسات الدينية.

١ - المناوي، محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر

المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ، ٥١١

٢ - موقع العلمانية: http://samiqab.blogspot.com/05/2011/blog-post_03.html

٣ - الشيخ بكر أبو زيد - معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ - (١٩ / ٢٨)

٤ - الموسوعة البريطانية، ٢٨ نيسان ٢٠١١

" وتعود جذور العلمانية إلى الفلسفة اليونانية القديمة لفلاسفة يونانيين أمثال إبيقور، غير أنها خرجت بمفهومها الحديث خلال عصر التنوير الأوروبي على يد عدد من المفكرين أمثال توماس جيفرسون وفولتير وسواهما. ينطبق نفس المفهوم على الكون والأجرام السماوية عندما يُفسّر النظام الكوني بصورة دنيوية بحتة بعيداً عن الدين في محاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته. ولا تعتبر العلمانية شيئاً جامداً بل هي قابلة للتحديث والتكيف حسب ظروف الدول التي تتبناها، وتختلف حدة تطبيقها ودعمها من قبل الأحزاب أو الجمعيات الداعمة لها بين مختلف مناطق العالم"^(١).

وبنظرة تاريخية لنشأة المصطلح نجد أن ذلك يعود للقرن الثالث عشر، كما جاء ذلك في كتاب الكنيسة والعلم حيث يقول: " أقدم التلميحات للفكر العلماني تعود للقرن الثالث عشر في أوروبا حين دعا مارسيل البدواني إلى الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية واستقلال الملك عن الكنيسة في وقت كان الصراع الديني الدنيوي بين بابوات روما وبابوات أفينغون في جنوب فرنسا على أشده؛ ويمكن تشبيه هذا الصراع بالصراع الذي حصل بين خلفاء بغداد وخلفاء القاهرة"^(٢). وبعد قرنين من الزمن، أي خلال عصر النهضة في أوروبا كتب الفيلسوف وعالم اللاهوت غيوم الأوكامي حول أهمية: " فصل الزمني عن الروحي، فكما يترتب على السلطة الدينية وعلى السلطة المدنية أن يتقيدا بالمضمار الخاص بكل منهما، فإن الإيمان والعقل ليس لهما أي شيء مشترك وعليهما أن يحترما استقلالهما الداخلي بشكل متبادل"^(٣)، ولكن العلمانية لم تنشأ كمذهب فكري وبشكل مطرد إلا في القرن السابع عشر، ولعلّ الفيلسوف اليهودي الملحد إسبينوزا كان أول من أشار إليها عندما قال: " إن الدين يحوّل قوانين الدولة إلى مجرد قوانين تأديبية. وأشار أيضاً إلى أن الدولة هي كيان متطور وتحتاج دوماً للتطوير والتحديث على عكس شريعة ثابتة موحاة. فهو يرفض اعتماد الشرائع الدينية مطلقاً مؤكداً إن قوانين العدل الطبيعية والإخاء والحرية هي وحدها مصدر التشريع"^(٤).

وفي الموسوعة الكاثوليكية: " أول من ابتدع إلى مصطلح علمانية هو الكاتب البريطاني جورج هوليك عام ١٨٥١، غير أنه لم يقدّم بصياغة عقائد معينة على العقائد التي كانت قد انتشرت ومنذ عصر التنوير في أوروبا؛ بل اكتفى فقط بتوصيف ما كان الفلاسفة قد صاغوه سابقاً وتحيله هوليك، من نظام اجتماعي منفصل عن الدين غير أنه لا يقف ضده إذ صرح: "لا يمكن أن تفهم العلمانية بأنها ضد المسيحية هي فقط مستقلة عنها؛ ولا تقوم بفرض مبادئها وقبورها على من لا يود أن يلتزم بها. المعرفة العلمانية تهتم بهذه الحياة، وتسعى للتطور والرفاه في هذه الحياة، وتختبر نتائجها في هذه الحياة"^(٥). بناءً عليه، يمكن القول أن العلمانية ليست أيديولوجيا أو عقيدة بقدر ما هي طريقة للحكم، ترفض وضع الدين أو سواه كمرجع

١ - كارين آرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الكلمة، دمشق: ٢٠٠٥، ص. ١٠٢.

٢ - جورج مينوا، الكنيسة والعلم، دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥، ص. ٣٣٦.

٣ - الكنيسة والعلم - مرجع سابق - ص. ٣٣٦-٣٣٧.

٤ - النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، مرجع سابق، ص. ٣٩.

٥ - الموسوعة الكاثوليكية، ٢٨ نيسان ٢٠١١.

رئيسي للحياة السياسية والقانونية، وتتجه إلى الاهتمام بالأمور الحياتية للبشر بدلاً من الأمور الأخروية، أي الأمور المادية الملموسة بدلاً من الأمور الغيبية.

المبحث الأول: مصادر المعرفة في النظام الإسلامي:

باستقراءنا للواقع الذي نعيشه ونشاهد أحداثه يمكن التوصل إلى أن هناك ثلاثة مصادر رئيسة للمعرفة في النموذج المعرفي الإسلامي أحدهما مصدر أساس والآخرا نابعان من المصدر الأساس، أما المصدر الأساس للمعرفة فهو الله I كما قال عن نفسه في كتابه الكريم: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (النحل: ٧٨)، وقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥)، أما المصدران النابعان من الأساس فهما الوحي المسطور: ويشمل كتاب ربنا " القرآن الكريم"، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم " الحديث الشريف" والمصدر الثالث هو الكون المحسوس.

المطلب الأول: المصدر الأساس للمعرفة:

إذا تسألنا عن كيف يكون الله تعالى مصدراً للمعرفة البشرية فسنجد أن هناك ثلاثة طرق للمعرفة ذكرها الله في كتابه العزيز في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء إنَّه على حكيم﴾ (الشورى: ٥١)، فهناك ثلاث مراتب في هذه الصلة المباشرة بين المصدر الأولي للمعرفة (الله) وبين المتلقي لهذه المعرفة (الإنسان) لا تكون هذه المراتب إلا للأنبياء، قال فيها الإمام الطبري في تفسيره: " وما ينبغي لبشر من بني آدم أن يكلمه ربه إلا وحياً يوحى الله إليه كيف شاء، إما إلهاماً، وإما غيره ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ يقول: أو يكلمه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما كلم موسى نبيه عليه السلام ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يقول: أو يرسل الله من ملائكته رسولاً، إما جبرائيل، وإما غيره ﴿فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء﴾ يقول: فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن ربه ما يشاء، يعني: ما يشاء ربه أن يوحى إليه من أمر ونهي، وغير ذلك من الرسالة والوحي"^(١). ونستمع في هذا المقطع إلى ماقاله الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين عن هذه المراتب الثلاث:

" **المرتبة الأولى:** مرتبة تكليم الله لعبده يقظة بلا واسطة وهي أعلى مرتبة كما كلم الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤)، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه، وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أحص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية، ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر كلم وهو التكليم.

١- أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، جامع البيان، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م- (٢٠/٥٤٠)

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣)، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ (الشورى: ٥١) فجعل الوحي في هذه الآية قسماً من أقسام التكليم وجعله في آية النساء قسيماً للتكليم وذلك باعتبارين، فإنه قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم، ثم هذا الرسول الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلاً يراه عياناً ويخاطبه، وقد يراه على صورته التي خلق عليها وقد يدخل فيه الملك ويوحى إليه ما يوحىه ثم يفصم عنه أي يقلع والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم ^(١).

أما عن المراتب الأخرى للصلة بين المصدر الأولي للمعرفة ومتلقيها فقد فصلها الشيخ ابن القيم في ثماني مراتب هي: مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، ومرتبة الإفهام، كما قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٨)، ومرتبة البيان العام وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهد وأعلامه، ومرتبة البيان الخاص وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والإجتباء، ومرتبة الإسماع، التي يقول عنها الله سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣)، و مرتبة الإلهام قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ (الشمس: ٧، ٨)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصير بن منذر الخزاعي لما أسلم: «قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي» ^(٢). والرؤيا الصادقة وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الرؤيا الصادقة الصالحة جزء من ستة وسبعين جزءاً من النبوة» ^(٣). ^(٤).

المطلب الثاني: المصدر الثاني للمعرفة: الوحي المسطور:

ويشمل هذا المصدر الوحيين كتاب ربنا سبحانه وتعالى وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

القسم الأول: القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو كتاب صلة الإنسان بالله، ومن ثم بالكون، وبأخيه الإنسان، فيضبط كثيراً من تصرفاته في عالم المعرفة والموقف الاجتماعي، وسائر شؤون الحياة، من هذا المنطلق، ولما له من أهمية في حياتنا الدنيوية والدينيوية حُمي من التحريف سواء بالزيادة أو بالنقصان، بل كان الرجوع إليه عاملاً مهماً في المراجعة

١ - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، (١ / ٣٧).

٢ - الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون - (٥ / ٥١٩) - قال الشيخ الألباني: ضعيف

٣ - الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م، ط ٢، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، (٩ / ٧٥).

٤ - ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، (١ / ٣٩ - ٥٠).

الدائمة لتفاسيره الفقهية والعقدية التحليلية منها والموضوعية. " وهو الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته"^(١).

القسم الثاني: المنهج النبوي:

أما المصدر الثاني من مصادر المعرفة الثانوية فهو المنهج النبوي الذي رسمه لنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وأمرنا باتباعه، ويمثل مع القرآن الكريم الوحي المنزل من الله سبحانه وتعالى كما قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤)، وقد عني المسلمون في مختلف العصور بالسنة النبوية باعتبارها مصدراً ثانياً للتشريع والأحكام بعد كتاب الله تعالى، بيد أن هناك مجالاً آخر لم يأخذ حقه الكافي من دراسة الدارسين وبمحت الباحثين، ذلك هو مصدرية السنة النبوية للمعرفة، وأصل ذلك أن السنة وبخاصة السنة القولية تتضمن أخباراً وإنشاءات - شأنها شأن كل كلام - فالإنشاء هو ما كان من الأمر أو النهي، وما في معناهما، ومنه نشأت الأحكام التي عليها مدار الفقه والتشريع، وقام على أساسها التعبد والسلوك، والخير هو المجال الأوسع للمعرفة، وخصوصاً فيما لا يدخل في نطاق الحس أو العقل، كحقائق الوجود وعوالم الغيب وأنباء المستقبل .. وغيرها. لذلك نستمتع إلى الدكتور القرضاوي يقول: " ولا نعني أن الإرشادات والأوامر والنواهي النبوية لا تحمل في طياتها معارف، كلا! فقد تشير إلى معارف وحقائق نفسية واجتماعية وتربوية واقتصادية وإنسانية، ويجد فيها أهل الاختصاص كنوزاً من المعارف لا يقدر قيمتها إلا العارفون. إنما نقول إن الخبر هو الأصل في إفادة المعرفة، والإنشاء تأتي المعرفة معه تبعاً، وقد ذكر الله تعالى وظائف الرسالة المحمدية في كتابه الكريم فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وزاد في آية: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، فالجزء المعرفي التعليمي جزء من المهمة النبوية الشريفة"^(٢).

وهكذا نستنتج مما سبق أن القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة هما مصدر علم الخير عن عالم الغيب. وقد نزه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن النطق بالهوى، أو أن يقول شيئاً من عند نفسه في أمر الدين، فكان مطلع سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم: ١-٤).

المطلب الثالث: الكون المحسوس:

١ - الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٣، (١٩/١)

٢ - انظر، القرضاوي، د. يوسف إبراهيم، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ط ٢، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ١٣١

أما المصدر الثاني من مصادر المعرفة الثانوية فهو الكون المحسوس والمشاهد بسمائه، وأرضه، وشجره، وحجره، وجميع الخلق فيه. وتأتي مصدرية هذا العنصر للمعرفة من توجيه الخالق جلا وعلا للتفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله فيها، ووسيلة ذلك التفكير هي العقل الذي وهبه الله تعالى لخليفته في أرضه، وقد أمر الله تعالى الإنسان أن يستخدم هذا العقل، الذي أنعم به عليه فيما يعود عليه بالنعف، يستخدمه في التفكير فيما حوله من المخلوقات العظيمة من أمامه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، بل يتفكر في خلق نفسه، فانقسم الناس في ذلك إلى أقسام، وخير هذه الأقسام من وصفهم الله بقوله:

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا

بَطَلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١)، فهي دعوة إلى التأمل في بديع صنع الله، وخلقته وبيان ما في هذا الكون من إبداع ينطق بعظمة الخالق جل وعلا، ووحدانيته في ربوبيته، وألوهيته وأسمائه وصفاته.

كيف والكون كتاب مفتوح يُقرأ بكل لغة، ويُدرك بكل وسيلة، يطالعه ساكن الخيمة، وساكن الكوخ، وساكن العمارة والقصر، كل يطالعه فيجد فيه زاداً من الحق إن أراد التطلع إلى الحق. إنه كتاب قائم مفتوح في كل زمان ومكان، تبصرة وذكرى لكل عبدٍ خضع وأتاب، ومعظم آيات الكتاب الكريم توجه إلى التفكير في مخلوقات الله تعالى بأصنافها المتعددة، وشر هذه الأقسام من قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا

مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩). ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾

(الغاشية: ١٧-٢١)

المطلب الرابع: مصادر المعرفة في الفكر العلماني:

بعد أن وقفنا على مصادر المعرفة في النظام الإسلامي نستعرض فيما يلي مصادر المعرفة في الفكر العلماني لنستنبط الفروق بين النظامين، وبتابعنا للنصوص القرآنية التي تخبرنا عن هذا الصنف نجد أن المصادر الأساسية للمعرفة لدى الفكر العلماني هي ظاهر الحياة الدنيا أي عالم المحسوسات، نجد ذلك واضحاً في كثير من الآيات القرآنية حيث يقول تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ [الجاثية: ٢٤]، وتبحث كثير من الدراسات في مصادر المعرفة الأساسية وتذكر هذه الدراسات أن مصادر المعرفة لدى هذه الفئة من العلمانيين بالإضافة إلى ظاهر الحياة الدنيا وعالم المحسوسات.

وإجمالاً يمكن تلخيص أبرز صور الانحراف العقدي عند العلمانية، التي منها:

أولاً: الانحراف عن أركان الإيمان: ويقوم على أركان بعيدة عن أصول العقيدة الصحيحة بل تتناقض معها، وهذه الأركان هي العمل للحياة الدنيا، وبناء منظومة العلم والأخلاق والفكر والثقافة بعيداً عن تعاليم أي دين، واتخاذ سياسات وتشريعات على أساس غير ديني.

ثانياً: رفض ألوهية الله في شؤون الحياة: برفض طاعة الله والانقياد لأمره، ورسم طريقاً مضاداً آخر غير الصراط المستقيم الذي أمر الله به.

ثالثاً: منازعة الله عز وجل في ربوبيته.

رابعاً: الإلحاد في أسماء الله وصفاته.

سابعاً: عدم التسليم لما جاء في القرآن من أمور الغيب.

ثامناً: إنكار معجزات الأنبياء.

عاشراً: العمل على تحريف مصدر العقيدة الأول (القرآن الكريم).

المبحث الثاني: محتوى المعرفة : المطلب الأول: محتوى المعرفة القرآني:

المرتکز الثاني للقضية المعرفية هي نوع المعرفة أو محتواها التي ينبغي أن يمدنا بها النموذج المعرفي الإسلامي، وبصورة عامة يمكن القول بأن نوع المعرفة المطلوبة يحدده الهدف من خلق الإنسان في الأرض، وهو كما جاء في القرآن عبادة الله أي معرفته كما جاء ذلك في أغلب التفاسير لقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وفي هذا الاتجاه يقول البروفسور بريمة: " المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية المعبرة عن حقيقة الحياة البشرية على هذه الأرض هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: وعبادة الله تعني العلم به ثم القيام بأمره ونهييه في أرضه بمقتضى شرعه"^(١)، إذن فالمعرفة الإسلامية المطلوبة هي تلك التي تعرف الإنسان بحالقه والحكمة من خلقه وخلق الكون، ومن ثم تعيينه على العمل بمقتضى تلك الحكمة.

ومن البداية يمكن أن يكون ابتداء هذه المعرفة من الله تعالى - عالم الغيب والشهادة- حتى يجبي من حيي بينة ويهلك من هلك عن بينة، لذلك وردت كثير من النصوص القرآنية الحكيمة تبين هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال جل شأنه: ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال في موضع ثالث: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (التوبة: ١١٥)، وهكذا نجد أن الله أنزل القرآن الكريم كعلم يحوي تفاصيل جزء من هذه المعرفة الإسلامية، والجزء الآخر من المعرفة جاء القرآن الكريم بتوضيح طبيعته وتحديد مفاتيحه في شكل كليات ينبغي أن تؤسس عليها تفاصيل تلك المعرفة التي تركت لكسب العقل البشري، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤]، لأن ذلك ميدان الامتحان الذي يقوم

١ - بريمة: أ.د. محمد الحسن إبراهيم، رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان، سلسلة

رسائل مجمع الفقه الإسلامي ، السودان، شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

عليه التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات و الأرض جميعاً له، وتحمله- تكليفاً- أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها هو.

المطلب الثاني: محتوى المعرفة العلماني:

تخبرنا الآيات القرآنية أن محتوى المعرفة عند زمرة العلمانيين هو عالم المحسوسات ولذلك انحصر علمهم فيما يظهر منها لوسائل الحس أي علم السنن الطبيعية كانت أو الإنسانية، وذلك لأن الإيمان بالآيات القرآنية يقتضي الإيمان بعالم الغيب الأمر الذي يجحده العلمانيون، كما قال تعالى عنهم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، فمحتوى المعرفة عندهم هو ظاهر الحياة الدنيا، والاستمتاع بملذاتها، لذلك وجه القرآن الكريم عن الإعراض عن هذا الصنف من البشر في قوله: ﴿فَاعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ الْإِلَٰهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩] - [٣٠]، فكل الذي يعلمونه منحصر في هذه الحياة الدنيا، وكذلك نجد حديث القرآن عن هذه الفئة من العلمانيين بأنهم يبنون حياتهم على معرفة ظنية لا توصل إلى يقين ومن ثم فهي لا تغني عن الحق شيئاً فقال فيهم: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦]، ونحن نعلم يقيناً أن المنهج الوضعي لا سبيل له إلى إثبات حقيقة علمية بصورة يقينية بل تظل النتائج العلمية دائماً ظنية، وإن كان هذا الظن يتروح كلما تراكم الدليل التجريبي المؤيد للنتائج النظرية.

المبحث الثالث: متلقي المعرفة:

ونعني بمتلقي المعرفة الشخص الذي ينوي تحصيل المعرفة الإسلامية من مصادرها الأصلية والأساسية والتي هي كما قدمنا آنفاً القرآن الكريم والمنهج النبوي الشريف، وهذا هو المتلقي الذي يتلقى المعرفة وفق المنهج القرآني، وينبغي لهذا المتلقي أن تكون له الاستعدادات النفسية والذهنية لتلقي هذه المعرفة التي ينشدها، وهذا الشخص الذي يتلقى المعرفة من مظانها يجب أن يكون مدركاً لمقتضى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، ونجد أنه على المستوى النفسي يسعى جاهداً للتحقق بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، ويسعى متلقي المعرفة على المستوى العقلي لطلب العلم ليعقل آيات الله المنظورة الماثورة في كونه، والمسطورة في قرآنه الكريم ثم تسخير هذا العلم للقيام بواجب الخلافة في أرض الله كما أمره بها سبحانه وتعالى، لذا نجد أن القيم الإسلامية الحققة هي المعيار الذي يحدد عنده أولويات البحث وضوابطه.

وعندما أراد الله تعالى أن يستخلف في الأرض وخاطب ملائكته بذلك في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، كان أول ما قذفه في روع هذا الخليفة الذي سيخلفه في أرضه أن أهمه علم الأسماء والأشياء وكانت هذه ميزة مهمة جداً ميزه الله بها عن ملائكته عندما قال لهم رداً على استنكارهم بخلق واستخلاف من يفسد في الأرض ويسفك الدماء فكان الرد الحاسم من المولى العالم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾، وهكذا كانت المعرفة التي تلقاها خليفة الله في أرضه من رب العزة والجلالة هي علم الأسماء والأشياء التي تجهلها ملائكة الله، والتي أهلت متلقيها أن يكون خليفة الله في أرضه.

المبحث الرابع: منهجية المعرفة:

لما كان حديثنا في الفقرات السابقة عن مصادر المعرفة الإسلامية ومحتواها وعن متلقيها، فإننا سوف نتناول في هذا الجزء المهم من البحث - والذي يركز عليه البحث أساساً- طريقة وكيفية الحصول على هذه المعرفة الإسلامية، وبمعنى آخر كيف تصل هذه المعرفة من مصدرها إلى متلقيها، فقد بين الله تعالى في قرآنه الكريم أنه خلق الإنسان أول ما خلقه وهو جاهل بأمر هذا الكون وبما يدور حوله فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(النحل: ٧٨)، ثم بعد ذلك وهبه الوسائل التي يتحصل بها على العلم وهي السمع والبصر والفؤاد، وقد تأكدت هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْقَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ (الإسراء: ٣٦)، ثم نجد بعد ذلك أن المولى عز وجل أراد منا أن نوجه هذه الوسائل التي منحنا إياها الوجهة الصحيحة عندما خاطب الإنسان بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

(الحج: ٤٦)، والتي فيه دعوة صريحة للتبصرة والعظة والاعتبار واتباع الحق الذي جاء به القرآن، يقول القرطبي فيها: "﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي أبصار العيون ثابتة لهم، ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي عن درك الحق والاعتبار،" (١). وكثير من الآيات في هذا المعنى.

وتحمل أول الآيات القرآنية المنزلة على خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام- مبدأً منهجياً فتح به عملية البحث عن الحقائق المعرفية، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق: ١-٥)، أي استفتح القراءة باسم الله وأوجد القراءة لما لا مقروء غيره، وهو القرآن الجامع لكل خير، وهذا المعنى تضمنه الأمر الأول بالقراءة، ثم تكرر الأمر للمرة الثانية واقتزن بصفة الأكرمية، وفي هذا الاطار نستمتع إلى طه جابر العلواني يقول: "ومن يقرأ القرآن بعد ذلك يكتشف القراءة الثانية التي تمثل الشق الثاني لإستكمال المنهج، وهي قراءة الكون بكل ما يحتويه قراءة الخلق ودراسة الوجود. فهما إذا قراءتان تجب قراءتهما: كتاب منزل متلو ومعجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون بدءاً من الإنسان" (٢). ويقول أبو القاسم حاج حمد "إن هذه الدعوة إلى الازدواجية في القراءة ترسم أمامنا المنهج الحقيقي للوصول إلى المعرفة، فقراءة الوحي تعني الرجوع إلى الأصل المعرفي الرباني الذي يعد بمثابة المؤطر الفكري المعرفي، وقراءة الكون والخلق تعني فتح مداركنا لاستيعاب كل ما يحيط بنا. ففي هذه الازدواجية الغيبية والقلمية ما يمنح الفعل الحضاري الإنساني عمقاً

١ - القرطبي، تفسير القرطبي - (١٢ / ٧٧)

٢ - العلواني، طه جابر، الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة،

ط: ١، ١٩٩٦م، ص: ١١.

كونياً متسعاً، فهاتان القراءتان لازمتان، وقيام إحدهما دون الأخرى تؤدي إلى إحداث شللاً منهجياً، وبالتالي قصوراً معرفياً ينجر عنه عاهات فكرية خطيرة، وبالتالي ليس للإنسان أن يلغي أيّاً من طرفي المعادلة، وليس له كذلك أن يحتوي أيّاً من طرفي المعادلة بمنهج الطرف الآخر، وعلى هذا الأساس المنهجي يصبح البحث عن الحقائق بحثاً منظماً بعيداً عن الفوضوية والتهيه الفكري، وبعيداً عن التضاد والصراع المعرفي^(١). ويقول لؤي صافي وهو يتحدث عن المنهجية المعرفية: "المنهجية المعرفية جهد علمي يرمي إلى تحديد العلاقة بين الثابت والمتغير في الخبرة الإنسانية، طبعاً في تراثنا وفهمنا، العلوي هو الله عز وجل. والعلوي كذلك الذي يتجاوز اللحظة الراهنة ويخرج عن إطار الوضعي والإجرائي. والإنسان ينشد العلوي باعتباره غاية نهائية، ويتعاطى مع الوضعي والإجرائي باعتباره وسيلة وأداة لتحقيق العلوي والقيم المرتبطة به. ويجدر بنا أن نلاحظ أن الثابت المعرفي ليس ثابتاً مطلقاً. المطلق المعرفي في حياتنا الإنسانية هو النص المنزل. بل لنقل بتفصيل أدق أن الثابت المعرفي هو الكلي الثاوي في النص المنزل، لأن النص المنزل يحتاج إلى تفسير، وبالتالي فالفهم الناجم عن قراءة النص لا يفارق المحدودية البشرية ذات الطبيعة المتحددة المتغيرة. هذا يعني أن الثابت المقصود ثابت معرفي لا ثابت نصي. وهذا يعني أيضاً ضرورة دراسة الثوابت المعرفية وتحديدتها، وإدراك إمكانية نقدها وتشذيبها نظراً لارتباطها بالمعرفة الإنسانية غير المعصومة وغير الكاملة، والقابلة للتطور والتجدد بتطور الخبرة الإنسانية واتساعها وتراكم المعرفة وتمدها"^(٢).

المبحث الخامس: تطبيقات المعرفة:

لعل خير مثال نسوقه لندلل به على الفرق بين تفسير النسق المعرفي القرآني للظواهر الكونية وذلك العلماني هو ما أورده القرآن الكريم في سورة سبأ عن اختيار سد مأرب وما سبقه وماتبعه من ظواهر طبيعية وإنسانية وكيفية تفسيرها، جاء في هذا الخصوص قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجِزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهُهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ (سبأ: ١٥-٢١).

ونستميح أستاذنا الجليل البوفسور: محمد الحسن برمة في الاستعانة بما أورده في هذا الإطار حيث يقول: " دعونا الآن نعيد سرد الوقائع القرآنية بإسلوب أهل الأرض ثم ندعو كلاً من المدرسة العلمانية

١ - حاج حمد، أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، ٤١٣/٢.

٢ - لؤي صافي، في معنى المنهجية المعرفية، موقع الكاتب: <http://arabic.linsight.org/articles/methodology.html>

والإسلامية لتعطينا تفسيراً علمياً للظواهر الواردة في الآيات الكريمة بناءً على ما يتيح النموذج المعرفي لكل منهما.

يدور محتوى القصة حول قبائل كانت تسكن أرض اليمن، ولقد تمكنت تلك القبائل من إقامة مملكة ذات حضارة تسمى مملكة سبأ، ولقد تمكنت تلك المملكة من إنشاء سد عظيم تجمعت فيه مياه الأمطار مما أمكن من زراعة رياض غناء وبساتين فيها كل أنواع الفواكه والثمار، ولقد كان هؤلاء القوم تجارة مع بلاد الشام والحجاز يستغرق السفر فيها زمناً طويلاً، ولكن وجود القرى الكثيرة على الطريق جعل سفرهم أكثر أمناً وأقل مشقة. وهكذا سارت الحياة بأولئك القوم هادئة وادعة ردياً من الزمن. ثم فجأة تبدل كل شيء حينما اجتاحت سيل العرم السد فانهار، وأجذبت الأرض ولم تعد تنبت إلا ثماراً صحراوية لا يستساغ مذاقها مقارنة بثمار ماكان من بساتين، وصاحب كل ذلك نزوح وهجرات فردية وجماعية لأولئك القوم إلى مختلف أنحاء المعمورة مما أدى إلى تمزق الأسر وتشريدتها^(١).

هذا باختصار مضمون القصة القرآنية، ونلاحظ أن هناك ظواهر طبيعية وإنسانية تلاحت خلال هذه القصة، فهناك سد قد انهار، وأرض أجذبت بعد اخضرار، وأسر تشتت بعد استقرار، واقتصاد انهار بعد إعمار، وجميع هذه الظواهر التي حدثت لأولئك القوم تعيش البشرية وقائعها الأليمة في عصرنا هذا، بل لعلها تحتل موقع الصدارة في قائمة هموم البشرية اليوم، لذلك فإن التفسير العلمي السليم لها يكتسب أهمية علمية كبيرة.

ويعقد البوسفور بريمة مقارنة في التفسير العلمي لظاهرة انهيار السد وتشريد الأسر والعوائل، ويبرز تفسير الظاهرة من قبل المدرسة الوضعية العلمانية التي ارتأت إرسال فريق من علمائها لدراسة الظاهرة السبئية وإيجاد تفسير علمي لأسباب حدوثها وما ينبغي على البشرية أن تفعله حتى تتفادي حدوث كارثة كهذه - مستقبلاً - ولما كانت الظاهرة ذات جوانب متعددة فمن المرجح أن يضم الفريق العلمي لهذه المدرسة العلمانية علماء في الهندسة والجيولوجيا والمناخ والزراعة والاقتصاد والدراسات السكانية وغيرهم ممن لهم علاقة بتلك الظواهر، وسوف يكون من المعطيات الاستمولوجية^(٢) اللازمة للدراسة هؤلاء العلماء ما يلي:

(١) أن يكون الفريق محايداً قيمياً، بمعنى أن لا يحمل أي أفكار قيمية مسبقة عن الظاهرة السبئية، أي عليه أن يأخذ كل معطياته التحليلية مما يشاهده ويعايشه في موقع دراسته.

(٢) عدم إقحام أي مفاهيم غيبية في تفسيرهم لتلك الظاهرة.

(٣) البحث عن قوانين طبيعية وسلوكية عامة يمكن أن تندرج تحتها الظواهر موضوع الدراسة.

(٤) الوصول إلى نتائج يمكن البرهنة عليها تجريبياً، معملياً أو حقلياً.

١ - بريمة، محمد الحسن - المعرفة بين الإسلامية والعلمانية - منشورات معهد إسلام المعرفة - جامعة الجزيرة -

السودان - ١٤١٣ / ١٩٨٣ م

٢ - هي باختصار شديد علم المعرفة أو نظرية المعرفة وتعني المعرفة أو العلم وهي فرع من الفلسفة متخصص بدراسة

طبيعة المعرفة ومداتها أو حدودها، (<http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=0e9cb91054989d0c>)

بعد هذه المعطيات لفريق الدراسة العلماني جاء التقرير العلمي لعلماء الوضعية عن الظاهرة السبئية، إن علماء الهندسة سوف يبحثون عن أسباب انهيار السد في القوانين الهندسية والفيزيائية التي على أساسها بني السد، وإمكانية وجود خطأ ما في النسب التي بها خلطت مواد البناء، وقوة مقاومتها لضغط التيار المائي، وعمر السد الافتراضي، والزوايا الهندسية المناسبة... إلخ. وعلماء الجيولوجيا سوف يبحثون في طبيعة التربة والصخور التي منها بني السد... إلخ، والراجع أن يعلل هؤلاء العلماء انهيار السد بخطأ معماري أو جيولوجي من نوع ما، وسوف تكون توصيتهم هي مراعاة عدم الوقوع في مثل هذه الأخطاء مستقبلاً. أما علماء النبات والمناخ المنوط بهم دراسة الأسباب التي أدت إلى أن تنبت الأرض شوكة بعد أن كانت تنبت عنباً، فغالباً ما يبحثون عن الأسباب في التغيير الذي طرأ على المكونات الغذائية للنبات في أرض سبأ، والتغيرات المناخية المفاجئة التي جعلت البيئة أصلح للسدر منها للفتح والعنب... إلخ، وربما يوصون بضرورة إضافة أسمدة من نوع ما، وإدخال دورة زراعية بطريقة معينة، والاستفادة من المياه الجوفية إن وجدت، بل وحتى استخدام المباني الخضراء إن أردنا أن نعيد الزراعة في سبأ إلى سيرتها الأولى.

أما علماء الاقتصاد والسكان فسوف يرجعون أسباب انهيار الاقتصاد السبئي والهجرات السكانية التي تلت ذلك إلى تناقص الانتاج بصورة حادة ومفاجئة نتيجة لانهيار السد، ونتيجة للنقص الحاد في الغذاء هاجرت الأيدي العاملة القوية للبحث عن مصادر رزق في أماكن أخرى مما أدى إلى المزيد من إضعاف البنية الاقتصادية إنتاجاً واستهلاكاً، وربما حلت المجاعة نتيجة كل ذلك فمات من مات وهاجر من هاجر، أما التوصيات فغالباً ما تربط إعادة الحياة الاقتصادية والسكانية سيرتها الأولى بضرورة إعادة بناء السد وقيام المشاريع الزراعية التي كانت من قبل.

هذا في مجمله ما نتوقعه من تقرير المدرسة العلمانية في دراستها لأسباب ومعالجات الظاهرة السبئية، وهو تقرير يستوفي جل إن لم يكن كل شروط البحث العلمي الذي تقرره المدرسة الوضعية. ولكن يبقى السؤال: ترى لو تدارك أهل سبأ جميع الأخطاء التي ذكرها تقرير علماء الوضعية، أو أعادوا ترتيب أمورهم من جديد بناء على تلك التوصيات، هل كان ذلك يقلل من احتمال انهيار السد أمام الضغط المائي؟ إن الإجابة على هذا السؤال بناءً على معطيات النموذج المعرفي العلماني هي نعم حاسمة، ولكنها لا نافية بناء على معطيات النموذج المعرفي الإسلامي كما نقرها آيات القرآن الكريم موضوع الحديث، فكيف يا ترى يفسر النموذج المعرفي الإسلامي الظاهرة السبئية؟

ثم اتجه بعد ذلك لرأي المدرسة القرآنية لتفسير هذه الظاهرة، موضحاً فيها أن النموذج المعرفي القرآني كنظيره العلماني إنما يستخدم أنضج وأعلى علومه وأرقى أدوات تحليله المعرفية في تفسير الظواهر وتشخيص عللها ووصف معالجاتها، وإن من أعلى العلوم الإسلامية في نظرنا هو علم الآيات الكونية، وإن من أرقى أدوات التحليل المعرفية الإسلامية تلك المستخلصة من ذلك العلم. لذلك نجد أن القرآن الكريم لا يتجاوز هذا العلم وأدواته التحليلية في تفسير الظاهرة السبئية، ولكن العالم المسلم في أغلب أحواله سوف يحتاج إلى المزاوجة بين علم السنن وعلم الآيات للوصول إلى تقرير علمي مكتمل عن الظواهر التي تكتنف حياة الإنسان، وذلك لصعوبة الإحاطة بعلم الآيات، ومن ثم صعوبة استخدامه منفرداً في الموضوع المعين، أما عالم

الغيب والشهادة سبحانه وتعالى فلا يحتاج إلى علم السنن الكونية لتفسير الظواهر لأنها تكاد تكون في أدنى سلم السببية اللازمة لتنفيذ المشيئة الإلهية.

لذلك نجد أن القرآن الكريم في تفسيره للظاهرة السببية بدأ بتحديد الإطار الاستمولوجي الأمثل وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾. فورود كلمة آية في إطار ظاهرة كونية في القرآن الكريم ينقل عقولنا مباشرة من علم السنن الطبيعية إلى علم الآيات، للبحث عن تفسير لتلك الظاهرة. والآية التي كان على قوم سبأ الانتباه لها هي طبيعة الابتلاء القائم على زينة الحياة الدنيا ومقتضيات ذلك الابتلاء. فالجنان الوارفة التي تحفهم عن يمين وشمال، والسد المنتصب وقد امتلأ بالماء، والمال الوفير المتدفق من تجارتهم مع الحجاز والشام، كل ذلك إنما يرد تفسيره في سلسلة من آيات الذكر الحكيم نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقوله سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله جل جلاله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ٥٥ شَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥] - [٥٦].

أما العمل الحسن أو الصالح المطلوب من قوم سبأ في هذا المقام فهو ذلك الذي يؤدي إلى شكر النعمة ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، وفي إطار علم الآيات فإن شكر النعمة أو كفرها تترتب عليه سنن مطردة في حياة الناس يلخصها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لَيْنَ شُكْرِكُمْ لَا تَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُغْتَابًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

إذن عندما فسرت الآيات ماحاق بقوم سبأ من كوارث طبيعية وإنسانية إنما كانت تستصحب معها هذه السنن الإلهية المضطردة في العلاقة بين أفعال الناس في تعاملهم مع زينة الحياة الدنيا شكراً أو كفوفاً وبين ما يكتنفهم من ظواهر كونية إيجاباً وسلباً، لذلك فإن القرآن الكريم إنما فسر اختيار السد بإعراض قوم سبأ عن شكر الله على نعمه، بل وبطرحهم بالنعمة فأرسل عليهم سيل العرم ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ كنتيجة منطقية لسنته القائمة على قوله: (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) ونفس التعليل ورد في إطار

النزوح والهجرات السكانية التي أصابت قوم سبأ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [سبأ: ١٩].

وهكذا نرى أن العلاقة السببية التي أوردتها النموذج المعرفي الإسلامي في تفسير الظاهرة السبئية مختلفة جداً عن تلك التي أمرنا بها النموذج العلماني. لهذا نستطيع أن نقول أنه ما لم تنتف الأسباب الني أوردتها النموذج المعرفي الإسلامي في تعليل الظاهرة السبئية فإن انتفاء الأسباب التي أوردتها النموذج الوضعي العلماني وحدها لم ولن يكون كافياً لنزوال ما أصاب قوم سبأ من كوارث، بغض النظر عن ضمان عدم وقوعها أصلاً.

إن العلاقة السببية التي أوردتها القرآن الكريم في تفسير الظاهرة السبئية ما كان لها أن تكتشف أبداً في إطار الرؤية الكونية العلمانية، وذلك أن الأخيرة لا تراوح ظاهرة الحياة الدنيا بينما السببية المندرجة في إطار علم الآيات لا تكشف عنها إلا الرؤية الكونية الإسلامية المبنية على معطيات الوحي الإلهي، إن هذه العلاقة السببية الهامة بين أفعال الناس من حيث كونها شكراً أو كفرأً لنعمة الله وبين ما يكتنف حياتهم من ظواهر طبيعية وإنسانية هي عنصر مهم في تكامل العلوم الإنسانية والطبيعية في دراسة تلك الظواهر، مثل هذه المنهجية البحثية تؤدي إلى نتائج أكثر صدقاً ومن ثم أكثر علمية، ولكن هذا لا يتأتى إلا في إطار المذهبية الإسلامية التي تزود العالم المسلم بالسنن الكونية من خلال علوم المختبر وبالآيات الكونية من خلال علوم الخبر.

والطريف حقاً هو أن عامة المسلمين يستخدمون السببية التي أشرنا إليها سابقاً بكثرة في تفسيرهم اليومي للظواهر التي تحيط بهم، ولا تصرفهم السنن الطبيعية والسلوكية التي كشف عنها العلم الحديث عن حقيقة الأمر الإلهي الذي هو وراء كل ظاهرة. ولكن البحوث العلمية التي يقوم بها علماء المسلمين من خريجي المدرسة العلمانية تخلوا تماماً من الإشارة إلى هذا النوع من العلاقات السببية التي يتكامل فيها علما الخبر والمختبر، والسبب في ذلك طبعاً أن المنهجية الوضعية لا مكان فيها لما لا يمكن ضبطه بوسائل الحس من ملاحظة وتجربة.

إن المسلم عندما يقبل على دراسة الظواهر السالبة التي تحيط بالناس كالزلازل والفيضانات والجماعات والجفاف والتصحر وتلوث البيئة والأمراض البدنية والاجتماعية والحروب وغيرها، أو على دراسة الظواهر الموجبة في كل مظاهر زينة الحياة الدنيا كوفرة في الإنتاج وغزارة في الأمطار وحظ وافر من العلم والتكنولوجيا وعافية في النفس والبدن إلى غيرها، لا بد أن يستصحب معه الرؤية الكونية الإسلامية التي تتكامل فيها العلاقات السببية، تلك العلاقات التي تجعل العلاقة بين الإنسان وبين خالقه من حيث الأمر والنهي، والإذعان والعصيان في قلب الأسباب ومن ثم الدراسة.

إننا نود أن نؤكد على أن العالم المسلم لا ينبغي له أن يقف فقط عند التعامل مع القوانين الطبيعية والسلوكية ودورها في وقوع الظواهر، بل عليه أن ينزلها منزلتها من حيث السببية. إن عليه أن يعلم أنها لا

تعدو أن تكون جنوداً من جنود الله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٧)

[الفتح:٧] تقوم بتنفيذ مشيئة نعمة أو نعمة حسب موقعها في سلسلة الأسباب، وهي مظهر من مظاهر تجلياته ورحمته بعباده في هذه الحياة الدنيا.

الخاتمة والنتائج:

بالامكان اختصار أهم نتائج البحث فيما يلي:

- ١- تعرف المعالم بأنها: الأثر الذي يُستدل به على الطريق، ومُعَلِّم الطريق: دلالاته، والمُعَلِّم: ما جعل علامةً وعَلَمًا للطريق والحدود.
- ٢- يعرف العلم بأنه: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو هو إدراك الشيء على حقيقته إدراكاً جازماً.
- ٣- هناك فروق كثيرة وواضحة بين تعريفات العلم والمعرفة يغفل عنها الكثير من المشتغلين بالبحث العلمي.
- ٤- مصادر المعرفة الرئيسة في النظام المعرفي القرآني هي رب العزة والجلالة وكتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والكون المحسوس، إضافة لبعض المصادر التابعة.
- ٥- المصادر الأساسية للمعرفة لدى النظام العلماني هي ظاهر الحياة الدنيا.
- ٦- المعرفة الإسلامية المطلوبة هي تلك التي تعرف الإنسان بخالقه والحكمة من خلقه وخلق الكون، ومن ثم تعينه على العمل بمقتضى تلك الحكمة.
- ٧- المعرفة التي تلقاها خليفة الله في أرضه من رب العزة والجلالة هي علم الأسماء والأشياء التي تجهلها ملائكة الله، والتي أهلت متلقيها أن يكون خليفة لله في أرضه.
- ٨- تحمل أول الآيات القرآنية المنزلة على خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام- مبدأً منهجياً فتح به عملية البحث عن الحقائق المعرفية.
- ٩- تفسر المدرسة العلمانية الوضعية الظواهر الكونية والأحداث الطبيعية تفسيراً مادياً بحتاً بعيداً عن هداية الله تعالى.
- ١٠- يعتبر النموذج المعرفي القرآني الأحداث والظواهر الطبيعية آيات من آيات الله يتبلى الله بها عباده ليميز بها الخبيث من الطيب.
- ١١- إن الفكر العلماني هدفه النهائي هو القضاء على الدين وعزله عن جميع نواحي الحياة، وعيش الحياة بكل ملاذها بعيداً عن أحكام الشريعة.

١٢- إن الفكر العلماني له آثار خطيرة على المجتمع الإسلامي، أبرزها حصر الدين في الحيز الشخصي، وانحسار مفهوم العبادة، وتفكيك وحدة المجتمع المسلم، وإقصاء الشريعة الإسلامية عن كافة مجالات الحياة ورفض تحكيمها.
والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

أهم المراجع والمصادر:

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م، بيروت.
- ٣- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت - ط ٢: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- ٤- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، ط ١، المطبعة الأميرية ببولاق مصر). ١٣٠٣هـ.
- ٥- أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفومي، كتاب الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري.
- ٦- أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- ٧- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُو جردِي الخراساني، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخرجه أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية بومباي - الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي بالهند، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ٨- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ.
- ٩- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١٠- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٣.
- ١١- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م، ط ٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- ١٢- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ١٣- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الفروق اللغوية، ط ١، ١٤١٢هـ مؤسسة النشر الاسلامي.

- ١٤ - العلواني، طه جابر، الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط: ١، ١٩٩٦م، ص: ١١.
- ١٥ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع في أحكام القرآن، أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- ١٦ - القرضاوي، د. يوسف إبراهيم، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ط ٢، القاهرة، دار الشروق، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ١٧ - المناوي، محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، دمشق، ط ١، ١٤١٠هـ.
- ١٨ - برمة: أ.د. محمد الحسن - رؤية القرآن للعالم ودلالاتها على أولويات المشروع الإسلامي في السودان - سلسلة رسائل مجمع الفقه الإسلامي - السودان - شركة مطابع السودان للعملة المحدودة - ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ١٩ - جورج مينوا، الكنيسة والعلم، دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥، ص ٣٣٦.
- ٢٠ - حاج حمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، طبعة جديدة ٢٠١٢م .
- ٢١ - كارين أرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الكلمة، دمشق: ٢٠٠٥، ص ١٠٢.
- ٢٢ - لؤي صافي، في معنى المنهجية المعرفية، موقع الكاتب:
<http://arabic.lsinsight.org/articles/methodology.html>
- ٢٣ - مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل، بيروت + دار الأفاق الجديدة، بيروت.